حوار مع الدكتور شوقي ضيف*

الحداثة ردة فكرية تلاشت وذهبت ريحها

الدكتور شوقي ضيف – رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة – هو أحد الرموز الأدبية الرفيعة في الوطن العربي، فهو أستاذ الأجيال – أو بتعبير آخر – هو من الجيل الذي يطلق عليه «جيل الأساتذة» أو «جيل الرواد» نعم.. إنه صاحب المؤلفات الشهيرة في اللغة والأدب والتراجم..على رأسها موسوعة (تاريخ الأدب العربي). وفي هذا الحوار حاولنا استطلاع آراء هذ اللغوي البارز في بعض القضايا المطروحة للنقاش.. مثل الهوية الثقافية، والمعركة المحتدمة بين الأدب الزائف والأدب الأصيل، ودور النقد الأدبي والفني وأهميته في حياتنا وشروطه وضوابطه، وماذا عن حاضر اللغة العربية ومستقبلها، وما هي العقبات التي تعترض مسيرتها في الحقبة الأخيرة.إلى غير ذلك من التساؤلات التي سوف يكشف عنها هذا اللقاء الذي بدأناه بالسؤال التالي:

• ما هو تقويمكم للواقع الأدبي والثقافي – خاصة بعد رحيل كثير من العمالقة والنوابغ في الوطن العربي ثم تدفق موجة «الحداثة» وما صاحبها من المذاهب بمسمياتها المتعددة... التي أحدثت ردود فعل عنيفة في حياتنا الأدبية والثقافية – بصفة عامة؟!

– أشم من رائحة السؤال، مدى الخوف والقلق الذي أصابنا من جراء الغزو الفكري والثقافي الغربي

* مجلة «الدعوة» السعودية، العدد ١٧٨٣ – ١٥ محرم ١٤٢١هـ ٢٠ نيسان «إبريل» ٢٠٠٠م

في العقود الأخيرة. ولكني أطمئن هذا الجيل والأجيال المقبلة، بأنه لا خوف على الأدب العربي إطلاقاً. إن حياتنا الأدبية قد تمرض ولا تموت، وتكبو لكن لا تطول كبوتها. وقد حدث ذلك كثيراً في العصور الماضية.

أما عن «الحداثة» – كما أطلقوا عليها – فلا هي حداثة ولا دماثة، بل هي ردة فكرية وثقافية. والحمد لله أن هذه الدعوى الغريبة الشاذة أوشكت أن تتلاشى وتذهب ريحها. «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

فشتان بين الأدب الأصيل والأدب الزائف، وشتان بين الأخلاق والدعارة. إن المشاعر العربية – دائماً – ترفض الفن الرخيص الزائف، كما ترفض الانحرافات النفسية والفكرية.

إن أدبنا العربي الإسلامي.. عالم فسيح رحب يتغنى بالتضحيات والبطولات، ويدعو إلى الفضائل، وينهى عن الرذائل، ويجول في أنحاء الشرق والغرب..

ويبرز التجارب المحلية والعالمية، ويرتبط بقضايا الإنسان عامة وقضايا المسلمين في شتى أنحاء المعمورة خاصة.

• يقول بعضهم: الحرية من أهم شروط الإبداع الجيد.. فهل الالتزام نقيض للحرية؟ وما هو موقف الأدب الإسلامي من هذه القضية؟

– لابد أن نعلم أن حرية الفكر لم تكن مجرد شعارات ترفع، أو كلمات جوفاء يتشدق بها الناس، وإنما لابد أن تكون واقعاً حياً ملموساً، وأن الحريات لم تكن مجرد نصوص في دساتير ومواثيق، وإنما هي تطبيق مؤثر، ودافع قوي للإبداع والخلق ولكن ما هي الحرية المطلوبة؟

أما عن دعاة التمرد وأدعياء الحرية فكل ذلك بمثابة «بدعة» ليتشبث بها الضائعون والتائهون وأسموها فلسفة، إنها لا ترمز إلا إلى الانعتاق من كل مسؤوليات العقائد، والانفلات من كل القيم، والغريب أن المروّجين لهذه الشعارات يسمونها «موقفاً» وأحياناً يدعونها وجودية وتعبيراً عن الذات، بل يحاولون أن يضعوا لها القواعد والأصول، وقد يكون لهذه «البدع» الفكرية في أوروبا ما يبررها، لكن في الشرق المستعبد الممزق التائه، يلتقطونها ويروجون لها، ويتخذونها ديناً جديداً فيسقطون في خطر داهم وفَناء محتم.. وهو الخراب الفكري والعقائدي.

إن من ينظر إلى صحفنا ومجلاتنا ومطبوعاتنا في السنوات الأخيرة يستطيع أن يقرأ بوضوح سوء المصير، ويشم رائحة الضياع والحسرة، والأديب الإسلامي الملتزم، رجل عقيدة وفكر، رجل حركة وعمل، يسترخص كل شيء في سبيل عقيدته، ولا يقيس المعارك بحساب الحياة والموت والخوف والخسائر المادية، وإنما يقيسها بالعمل الجاد والجهاد وبمقاييس الحق والعدل التي تشربتها روحه من النبع الإلهي الصافي.

• ما رأيكم – فيما نراه – الآن – من التحيز الفكري والتعصب المذهبي؟. وما هو تفسيركم لأسلوب الإرهاب الفكري عند العلمانيين ومطاردتهم لمن يخالفهم في الرأي، بل اتهامهم للملتزمين بالرجعية والتخلف.. إلى آخر تلك المسميات التي طفت على الساحة الإعلامية؟

– أنا لا أرفض التحيز بالنسبة لأي مثقف، وهذا مجرد رأي، لكن الذي أرفضه أن يكون هذا التحيز منبعثاً من ثقافة ناقصة. إن لكل مفكر موقفاً، ولكي يختار موقفه يجب أن يتدارس المواقف المهمة والبارزة، فكثيراً ما قرأنا لقوم يهاجمون الإسلام من دون أن يلموا بأصوله الأولية، ومن دون أن يعرفوا فرائض الوضوء!! وكثيرون أخذوا علمهم من منصر حاقد، أو مستشرق ناقم، من دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة

البحث عن الحقيقة، لذا أقول: لا بأس أن يكون لكل مفكر موقف، أي أن يتحيز لموقفه، على أن ينطلق هذا الموقف من وعي وفهم ودراسة.

أما عن تلك الهجمة الشرسة التي تطارد أو تحاصر الملتزمين والمخلصين، وقد صورهم المغرضون بصورة المتخلفين عن قضايا عصرهم، وبصورة اللاهثين وراء فتات الموائد.. نعم.. فإن هذا الإرهاب الفكري هو الذي يمارسه هولاء المتخبطون الذين يرمون المخلصين بالانحراف والتخلف والتبعية، ومن ثم أصبح النقد لوناً من ألوان المطاردة العنيفة لكل ما هو جاد وأصيل، حتى وجد المخلصون أنفسهم محصورين في زوايا ضيقة، مرغمين على الاستسلام والصمت، وتحول الإبداع والفكر إلى هتاف وصياح وصرخات تشنجية!

لقد حوّلوا الإبداع إلى هتاف وصراخ.

• بصفتكم - أستاذاً للأدب والنقد، فضلاً عن موهبتكم الإبداعية - ترى ما هي مؤهلات الأديب المعاصر.. أو التي ينبغي أن تتوافر فيه - من وجهة نظركم -؟!

- نعم. إن من البديهي أن لكل إنسان استعداداته الخاصة، وميوله الشخصية، أو موهبته الفطرية، وهي أمر أساس في أي مهنة أو حرفة يختطها الإنسان في حياته، ثم يأتي بعد ذلك دورنا نحن في رعاية هذه المواهب وصقلها، حتى يمكنها أن تؤدي الرسالة المنوطة بها، فضلاً عن ذلك، هناك بعض الاشتراطات الجوهرية التي لابد منها لأي أديب يريد أن يقدم عملاً أصيلاً في أي فرع من فروع الأدب.

أولها: «اللغة» لأنها الأداة التي سوف يستعملها الأديب في صناعة أفكاره، ولذلك فإن تعلم اللغة العربية وقواعدها، والإلمام بالتراث يعتبر مسألة حيوية لأي أديب يريد أن يكون له شأن مذكور في عالم الأدب.

ثانياً: على الأديب أن يطلع على التجارب الأدبية المتنوعة لكبار كتّاب العصر، فهذه النماذج هي في واقع الأمر «الأستاذ الأول» لأي أديب، وهي تأتي قبل الدراسة الأكاديمية للعلوم الأدبية مثل فن القصة أو فن المسرحية وعلم العروض.. وأوزان الشعر.

• ما الدور الذي يمكن أن يلعبه النقد في حياتنا الفكرية والإبداعية - من واقع تجاربكم ورؤيتكم الثقافية؟!

- لاشك أن النقد له دور مهم في حياتنا الفكرية، وليس هناك نهضة إبداعية أو أدبية إلا إذا قام النقد بواجبه إزاء تلك النهضة من حيث «التقويم» والتقييم، لأن النقد في العادة يحدد المستوى الذي وصلت إليه، ويكشف عن محاسن تلك النهضة ومساوئها، ثم إن النقد يمكنه أن يرد الآثار الفنية إلى أصولها ومنابعها.

النقد إذن هو استخدام المقاييس الصحيحة للحكم على التجارب الفنية شكلاً ومضموناً، وهو ضرورة تاريخية وفنية، وتقاعس الحركة النقدية يعني نقصاً خطيراً في حياتنا الفنية.

ومما لاشك فيه أن حركة النقد العربي قد أصابها الكثير من القصور والخمول، بحيث لم تستطع أن تؤدي رسالتها على الصورة المنشودة.

• ذكرتم أن حركة النقد الأدبي تعثرت في مسيرتها، أو أصابها الخمول والقصور فما العقبات التي اعترضت مسيرة الناقد وعرقلت طريقها - من وجهة نظركم؟

- كثيرة تلك العقبات التي تعترض مسيرة النقد، ولعل أولها هو افتقار النقاد إلى ما يستحقونه من تقدير مادي وأدبي، فالناقد اليوم - بالنسبة إلى الأدباء

– يقف في مؤخرة الموكب، ولا يكاد يلتفت إليه أحد، ولا يكافأ على عمله إلا بالنزر القليل، وهذا دون شك أمر مجحف جعل الكثيرين ممن لديهم القدرة على النقد، يبحثون لهم عن مصدر رزق آخر أو يفتشون عن حياة أخرى تضمن لهم التقدير والاحترام، حتى وإن كانت هذه الحياة لا تتفق مع ميولهم وتخصصاتهم. إن عدداً كبيراً من النقاد يتجه إلى عمل صحفي، أو يشارك في إعداد القصص للمسرح والتمثيليات والسينما.. أو... أو... أو.

«العقبة الثانية».. ولعلها أخطر من الأولى، هي أن الكثير من النقد على أيامنا، قد أغرقته السياسة أو المذهبية المتعصبة في طوفانها الهادر، فضاعت قيم العدالة والإنصاف والموضوعية، وهي روح النقد وسر بقائه، فتألقت في سماء الفكر أسماء زائفة، وحوربت شخصيات أصيلة جادة، قدمت العديد من الروائع.. ولا يستطيع باحث منصف أن ينكر ما أدى إليه وباء التعصب و«الشللية» من دمار وخراب في النهضة الفكرية المعاصرة.

«العقبة الثالثة» وهي أن كثيراً مما يسمونه نقداً لا يمت إلى النقد الصحيح بصلة تذكر.. إنها مجرد كتابات تعبر عن انطباعات الناقد ومزاجه الشخصي، من دون اعتبار للقواعد والأصول النقدية الموضوعية، فهي أقرب إلى «التقريظ» منها إلى النقد العلمي.. ولهذا دخل النقد في باب ما نسميه بـ«الدعاية»، أصبح أشبه بالإعلانات التي ينشرها المنتج السينمائي في الصحف والمجلات وعلى شاشة التليفزيون..

وكان لهذا كله صلة وثيقة بإفساد أذواق الجماهير، فأخذت تقبل على الألوان الفنية الرخيصة والهابطة المستوى، والتي تعمد إلى الإثارة الطائشة، ومخاطبة الغرائز الدنيا في الإنسان، وكان لهذا أسوأ الأثر في تشكيل وجدان الأجيال الجديدة.

بطبيعة الحال يحق لنا في هذه العجالة أن نثني على بعض الجهود الفردية العملاقة، التي قام بها نقاد أمناء، واستطاعوا أن يحملوا المشعل وسط العواصف، في شجاعة لا مثيل لها، فقدموا بذلك أجل الخدمات وأعظمها لحركة الفكر العربي المعاصر.

● من وجهة نظركم – ما الأسباب التي أدت إلى ضعف اللغة العربية ووصولها إلى حد الخطر الذي يهدد بطمس أهم معلم من معالم شخصيتنا، وأبرز مقومات شخصيتنا؟!

– لعل هناك الكثير من الأسباب التي لا تخفى على عاقل أبداً، نذكر منها: إهمال اللغة في مجال التعليم العام، وعدم الاهتمام بالممارسة التطبيقية التي تمكن من القراءة الصحيحة والكتابة السليمة والتعبير القويم.

كذلك إهمال اللغة في مجال التعليم العالي، وهذا

● أدعو إلى تعريب التعليم الطبي وإلى تعريب أسماء الشركات.

الإهمال واضح في معظم الكليات والمعاهد غير المتخصصة في اللغة العربية، مثل كليات الطب والصيدلة والهندسة والعلوم.

أيضاً، ترك اللغة العربية تماماً في بعض مجال الدراسات العلمية، فبعض الكليات في بعض البلاد العربية تدرس الطب مثلاً باللغة الإنجليزية، بحجة أن اللغة العربية لا تسعف في هذا المجال، ولأن معظم المراجع والبحوث والدراسات العالمية المتطورة تتم باللغات الأجنبية الحية وفي مقدمتها الإنجليزية، وعلى الرغم من الوجاهة الظاهرة لهذا التسويغ، فإن الواجب يقتضي الاهتمام في هذا المجال باللغة العربية، بحيث نبدأ بالتدريس بها في بعض الفروع التي تمت فيها إنجازات بلغتنا العربية، ثم نمضي تدريجياً في مجال تعريب التعليم الطبي، حتى يتم لنا الوصول إلى الغاية التي نأملها، وهي أن يكون علم الطب لدينا محرراً بالعربية ومعلّماً بها، من دون ترخص في أي من الجانبين، الجانب الطبي العلمي والجانب اللغوي العربي.

أضف إلى هذه الأسباب، أن هناك إهمالاً للغة الفصحى أو عدم العناية بها بالقدر الكافي في أجهزة الإعلام، حيث تجنح تلك الأجهزة غالباً إلى التوجه إلى المستمعين والمشاهدين باللغة العامية، وهذا الجنوح إلى العامية يدعم اللهجات المحلية، ويباعد بين الجماهير ولغتهم العربية، ويشارك في اغتراب الفصحى وعزلها، وكأنها لغة أجنبية!

وضمن هذه الأسباب أيضاً، إهمال اللغة العربية في كثير من المجالات الحيوية، ومن أهمها مجال التسميات التجارية والصناعية، فكثير من الشركات العربية التجارية تصطنع أسماء أجنبية، وهذه الظاهرة تدل على الهرولة وراء بريق اللغات الأجنبية، وتدل في الوقت نفسه على نوع من قصور الحس الإسلامي وشحوب الشعور العربي عند البعض!

ليس هذا فحسب، بل إن من المؤسف حقا، أن نجد الزراية على اللغة العربية أو التهوين من شأنها والإقلال من قيمة المشتغلين بها، وقد بدأ ذلك كله مع الاستعمار الأجنبي للبلاد العربية، والذي أخضع معظم هذه الشعوب للغته وثقافته، إلى الحد الذي جعل اللغات الأجنبية لغة التعليم في البلاد التي رزئت بالاحتلال الأجنبي.

• كيف يمكن رد الاعتبار إلى لغتنا العربية، والانتصار لها - خاصة فيما يتهددنا الآن من رياح التغريب العاتية وأخطار العولمة؟

• لن تكتمل نهضتنا الأدبية الحديثة إلا إذا قام النقد بدوره النزيه الحي.

- هذا لن يكون إلا بالمواجهة الحازمة لتلك الموجة الساخرة التي تتهكم على العربية وتسيء بالسخرية إلى المتحدثين بها والعاملين في ميدانها، فكثيراً مانجد مظاهر مؤسفة من هذه الموجة الكريهة، فيما تقدمه بعض الأفلام والمسرحيات والمسلسلات، فبمواجهة هذه الموجة الساخرة نوفر للغتنا ما تستحقه من توقير، باعتبارها أهم مقوم من مقوماتنا وأبرز معالم شخصيتنا.

ولا نقصد بالحفاظ على اللغة الفصحى أن تفرض فرضاً في التعامل الحيوي في البيت والشارع والسوق، وإنما نقصد الحفاظ عليها في مجالاتها التي من المفروض أن تحتلها، وهي مجالات التعليم والتثقيف والإعلام، ومجالات الخطاب القضائي والسياسي، والتعامل الرسمي والتراسل الإداري والتجاري، ثم في المجال الحيوي الذي يمثل واجهة الأمة وصورتها في عيون أبنائها وعيون الآخرين، مثل مجال أسماء المؤسسات والشركات والمتاجر والمنتجات والمخترعات وغيرها.. بحيث تنطق سليمة وتكتب صحيحة ويعبر عنها بلسان عربي مبين.